الآليات الحجاجية للتواصل

ليونيل بلينجر

ترجمة : عبد الرفيق بوركي

يبين روبير بلانشي في كتابه "الاستخدام العملي للاستدلال" أن "العقل ليست له وظيفة نظرية فقط، بل له أيضا وظيفة عملية: فموضوعه يهم عرض معارفنا وتعميقها بقدر ما يهم توجيه أفعالنا".والحال أن توجيه الأفعال يعني أساسا الاشتغال في ميدان المحتمل. وإذا كان العقل ينتج برهنة حيثما وجدت قوانين وقواعد ووقائع، فإنه ينتج حججا حينما يتعلق الأمر بـــ"المراهنة" (بالمعنى الذي استخدمه باسكال) في " التأملات" على قرار أو رأي أو تأويل. ويعتبر بيار أورليون في "الاستدلال" أن الحجاج "مخصص لإنتاج قرارات ينبغي اتخاذها من دون أن يكون الوقت متاحا للإحاطة الشاملة بالمسألة وخاصة فيما يتعلق بالموضوعات التي يستبعد أن تتضح كلية جميع معطياتها بصورة قبلية".

وهذا ما يشكل موضوع دراستنا، إنه حقل التأملات غير المحدد المعالم الذي يقود إلى اتخاذ القرار قبل القيام بالفعل. وهو ميدان سيجد فيه الكثيرون سلسلة مواقف معتادة من الحياة اليومية: إقناع زبون بمزية منتوج، المطالبة بالزيادة في الأجرة، اتخاذ قرار التوظيف، تبرير استثمار، اتخاذ قرار بالتصويت لصالح مرشح معين، الدفاع عن ظنين، تكوين رأي عن هذا المشروع أو ذاك التغيير. كل فرد يعيش على طريقته الخاصة دوخة التأمل الذي يقود إلى الاختيار وإلى القرار. فبالحجاج نسعى إلى خلق التوازن، والاستقرار على أمر، بل إنه أحيانا وسيلتنا إلى تحقيق الاطمئنان لنا وللآخرين. وهكذا فإننا نعيش حججنا باعتبارها قرائن إثبات ونستند في إعداد هذه القرائن على ثلاثة مصادر:

- ثقافتنا وتاريخنا وكفاءتنا التقنية (مصدر معرفي).
- طريقة تفكيرنا (العادات الاستدلالية، المنطق، النماذج الرياضية، التجريب).
- خاصيتنا الانفعالية (العواطف والأحاسيس).

وبهذا المعنى يكون الحجاج ممارسة "نفسية-منطقية" مندرجة في ثقافة معينة، ويتم إعدادها من أجل التفاعل مع الممارسة "النفسية-المنطقية" للشركاء المعنيين، أو بكل بساطة من أجل التفكير في اتخاذ هذا القرار أو ذاك. ولهذا الحجاج – موضوع دراستنا- تاريخ وتعاريف ومعان تحتاج إلى تبيين؛ ويمكنه أن يقسم إلى أبواب، ويشتمل على ميادين اختصاص في غاية التنوع، سنعمل على رسم إطارها

العام.

1- العلامات البارزة في تاريخ الحجاج

هناك فكرة تهيمن على مجمل الحجاج في جميع مراحله التاريخية: عادة ما تتم معارضة الاستدلال الصارم (من النمط الرياضي أو المقتبس من المنطق الصوري) بالحجاج الذي يقترب من الديالكتيك والبلاغة أي إلى "الخطاب". وقد عانى الحجاج من تقابله للبرهنة التي تستفيد من الميزة العلمية، المقترنة بمعالجة ما له صلة بالحقيقي، بالصحيح، بالحجة، بالمنطق. لأن هذه المقارنة تضع الحجاج في الجهة السيئة من القطيعة الفاصلة بين عقلية الدهاء والعقلية الهندسية، بين الرأي والعلم، بين الممارسة والنظرية، بين المحتمل والحقيقي، بين الإقناع والبداهة. في هذه الحالة يجد الحجاج صعوبة في التخلص من دلالة تاريخية ذات طابع قدحي طاغ، يمكن التعرف على بعض آثارها.

- الديالتكتيك والبلاغة

منذ العصور القديمة، جرى التمييز بين البرهنة والحجاج. ويعود جوهر الاختلاف إلى أن الحجاج يقتضي تفاعل الذوات، في حين أن البرهنة تنفي الذات، وبالتالي فهي صارمة لأنها بمنأى عن جميع تأثيرات اللغة، والعواطف، وبمنأى عن ظروف المكان والزمان التي يستعمل فيها، وإجمالا بمنأى عن دور المستمع والخطيب. لقد كان مفهوم الحجاج مستخدما لدى جميع فلاسفة العصور القديمة، لتحليل فن الحوار (الديالكتيك) وفن الكلام (البلاغة). وهكذا، فإننا نجد الحجاج موظفا حيثما عمد الفكر إلى "المضاربة". وقد أثرت بقوة على حياة مفهوم الحجاج التقلبات التي عرفتها عبر التاريخ معاني الديالكتيك والبلاغة، ليعاني بالتالي من القرابة التي تجمعه مع هذين المفهومين "غير المفضلين" أو غير المحددين بصورة جيدة.

- الفلاسفة السابقون لسقراط

ترجع الآثار الأولى لفن الحوار إلى القرن السادس ق.م. فقد ظهرت عند الفلاسفة السابقين لسقراط مع نهضة الحس النقدي المطبق على المعطيات المادية.

يعتبر زينون ديلي رائد "فن الحوار" الموافق للمعنى الأول للديالكتيك. كان زينون تلميذا للفيلسوف بارمينيد ومتشبثا بوحدة الوجود المطلقة وخصما لهرقليط، فيلسوف التناقض، وقام بتعليم فن الدحض، وهو نوع من الجدل السلبي، الذي ينطلق من مقدمات مقبولة أو مستحسنة من قبل الخصم ثم يعمل على تقويض استدلاله ونتائجه. وهكذا فإن أقدم أثر حي للحجاج يمكن تحديده

تاريخيا، هو حجاج يقوم على مواجهة الخصم بكلامه أو بأفعاله كحجة عليه، أي أنه حجاج موجه ضد الخصم. يمكننا أن نلاحظ بأن المعنى الشائع اليوم للفظة "argumenter"، أقام الحجة، لازال يحتفظ بهذه الدلالة الأصلية المحملة بمدلول هجومي أو دفاعي. وقد أقام زينون منهجه على مبدأ عدم التناقض: فعندما يعرض رأيان على الأقل، ويكون أحدهما صائبا، فإن الآخر خاطئ.

من بين الحجج المستعملة من طرف زينون، حجة اشتهرت باسم "حجة إخيل". وقد عرضها زينون "للبرهنة" على استحالة الحركة: "إخيل لن يلحق أبدا بسلحفاة انطلقت قبله، فلكي يلحقها يلزمه أولا أن يصل إلى النقطة التي كانت توجد بها السلحفاة عندما انطلق في السباق، ثم يصل بعد ذلك إلى النقطة التي وصلت إليها السلحفاة، وهكذا دواليك...".

- السفسطائيون

ستنمي العديد من المدارس الفلسفية، ومن بينها مدرسة ميكار، هذا الفن، فن الحوار، وستعطيه معنى محددا: منطقا في خدمة المصالح الخاصة. يتعلق الأمر إذن بمساعدة المرشحين للوظائف السياسية على النجاح في السياسة واستلام السلطة. لقد علم بروتاكوراس وأتباعه مهارة القول، وحثوا على استخدام الحجج المضللة التي ظاهرها الحق وباطنها الباطل. ستسمى هذه "الحجج" بالسفسطة، وستصبح السفسطائية تخصصا دراسيا يعين على إظهار المحاسن أو المساوئ في كل موضوع يمكن للعقل أن يقوم فيه بالمزايدة. "ابتكر" السفسطائيون إذن البلاغة التي هي فن الكلام الذي يتوخى الإقناع، فن الفصاحة وخاصة فصاحة الخطاب السياسي أو القانوني (فن المحامين العصريين)، المستخدم لكل الإمكانات (الصور المؤثرة، الاستدلال الخاطئ، استدعاء المشاعر، استغلال الانفعالات والمعتقدات،...) بهدف تحقيق النجاح الشخصي والحصول على "التصويت المؤيد" من طرف المستمعين (أو الجمهور المحتشد في الساحة العمومية).

- سقراط والهم التربوي للحجاج

في ردة فعل ضد البلاغة الفصيحة للسفسطائيين وضد الديالكتيك السلبي لزينون، سعى سقراط إلى تعليم مخاطبيه. لقد كان مشروعه يتمثل في البحث عن الحقيقة. ولأجل ذلك فإنه لم ينشغل بالسفسطات، وإنما بوضع تعاريف ومعاني الكلمات التي تعين الأشياء. وهكذا اعتمد سقراط الاستدلال الاستقرائي، ويتمثل في حركة ذهاب وإياب دائمة من الجزئي إلى العام ومن العام إلى الجزئي ومن المحسوس إلى المجرد ومن المجرد إلى المحسوس. ولازالت لهذه الوسيلة الاستدلالية فعالتها إلى اليوم، يستخدمها من يريد أن يشرح ويقنع. ويتمثل الاستقراء السقراطي في إحصاء ملاحظات جزئية

يستخلص منها إثبات عام يخضع بعدئذ للتصحيح من أجل التسليم بعناصر جديدة ومختلفة. وهكذا، انطلاقا من لا شيء، نسائل ونراكم الوقائع، ونستنتج قاعدة ونعمل على تهيئتها، مما يسمح بتجنب الخطابات الطويلة والاستدلالات المضللة للسفسطائيين. وسنرى فيما بعد أن الاستقراء السقراطي لم يتقادم، وأنه يحتل حيزا مهما في المناقشات الإقناعية اليومية.

- الديالكتيك الافلاطوني

أخذ أفلاطون عن سقراط جوهر معارضته للسفسطائيين وللبلاغة. فقد هاجم في "غورجياس" على الخصوص، الممارسات المتمثلة في استعجال النتائج دون تقص حقيقي. وفي "فيدر" حلم أفلاطون بخطاب يكون جديرا بالفيلسوف، خطاب يمكنه أن يقنع الآلهة نفسها.

يستخدم افلاطون، في البحث عن الحقيقة بالمعنى الفلسفي (البحث عن الموجود الواقعي، عن "ماهية" الأشياء)، ما سيسمى أيضا بالديالكتيك، ولكن بمعنى جديد، مختلف عن "فن الحوار" لدى زينون، مع تدقيق للمنهج السقراطي. فالديالكتيك، بالنسبة لأفلاطون، هو حركة العقل التي ترقى من الأحاسيس إلى المثل، ومن الأشياء الجميلة إلى فكرة الجمال مثلا.

إن هذا "السمو" نحو ماهية الأشياء والكائنات، نحو الثلاثية الإلهية الأفلاطونية (الحقيقة والخير والجمال)، وهو نزعة خاصة بالفيلسوف، لم تعد له أي صلة بالبلاغة. نجد لدى أفلاطون هذا التمييز بين أفحم وأقنع. وهو التمييز الذي سنجده فيما بعد عند باسكال وفي المقاربات المعاصرة لمفهوم الحجاج. فالإفحام هو صنيع الفيلسوف، المنشغل بالمطلق، الباحث عن الحقيقة والوجود والمثال. بينما الإقناع هو صنيع الخطيب الذي يعالج الآراء، والأشياء المرئية، والمحتمل. ومن يعمد إلى الإقناع في معناه الثاني يستخدم السفسطات والأدلة العاطفية: إنه يؤثر على خيال المستمع ومشاعره وليس على عقله.

- الاستدلال والبرهنة عند أرسطو مؤسس المنطق

يبدو أرسطو كأول منظر للاستدلال وللبرهان. فقد عرض، في كتاب له (المواضع) لما كان شابا، دور الحجاج: "إن غاية هذا المؤلف هي إيجاد طريقة تجعلنا قادرين، انطلاقا من مقدمات محتملة، أن نقيم الحجة على كل مشكل معروض، وأن نتجنب، حينما نسند حجة ما، أن يصدر عنا أي قول يكون مناقضا لها". يقصد أرسطو بـــ"المقدمات المحتملة" الأفكار المقبولة عموما من طرف الجميع أو من طرف من نحاوره. وهكذا فإنه لم يهتم إلا بآليات الاستدلال وبأساليب التحاور. ليعمل على تعيين تقنيات الحجاج في محاورات أفلاطون، وسعى إلى إنجاز ترتيب ممنهج للوسائل المستعملة في المرور من المقدمات إلى النتائج. لم ينشغل أرسطو بحقيقة المقدمات ولا بحقيقة النتائج. ولهذا أنشأ، مثلما فعل

زينون، تقنيات للحجاج بناء على خاصية مبدأ عدم التناقض (أمران متناقضان لا يمكنهما أن يكونا صادقين معا في نفس الآن).

وهكذا حدد أرسطو الحجاج باعتباره كيفية للاستدلال المنطقي انطلاقا من رأي أو فكرة مسلم بها.

إن هذا التصور هو الذي سيعمل على تعميقه في البلاغة، وهو بحث من ثلاثة كتب، ألف نحو 330 ق.م؛ اجتهد فيه لكي يجعل من البلاغة "فن الكلام بطريقة تتوخى الإقناع"، أي أنه أراد أن يجعل منها نظرية كونية: فصنف أنواع الخطاب وأنماط الحجج المقنعة (من أكثرها تعلقا بما هو بسيكولوجي، تلك التي توظف الانفعالات والمعتقدات، إلى أكثرها عقلانية، تلك التي تستعمل الدليل بالواقعة، بالبينة، بالاستدلال). وانطلاقا من ذلك راح أرسطو يتأمل "فن الاستدلال"، وألف التحليلات (الأولى والثانية)، وهي طائفة من التآليف المجمعة في الأورگانون، الكتاب الذي يعد أول بحث في المنطق.

منذ أرسطو، عرف المنطق بأنه العلم الذي يدرس المبادئ العامة للفكر العقلاني، علم معياري (كيف تقيم برهانا سليما)،كان المنهج الرياضي أول تطبيقاته. وأضاف أرسطو، إلى الاستقراء السقراطي والديالكتيك الأفلاطوني، الاستنباط (وفن الاستنباط بدون خطأ)، فكان قياسه الشهير أو صور الاستدلال التي بها يمكن استخلاص نتيجة مسلم بها انطلاقا من "مقدمات" حقة.

- الديالكتيك عند الرواقيين وعند القديس أوغستين

عزز الفلاسفة الرواقيون تصورا إيجابيا عن الديالكتيك بضمه عمليا إلى المنطق. وعلى العكس من ذلك، أرجع سانت أوغستان الديالكتيك إلى البلاغة وقدمها باعتبارها "مهارة في الحوار" أو "طريقة بارعة وذكية في الكلام".

نخلص من هذه الجولة السريعة حول مفهوم الحجاج في العصور القديمة، إلى أن الديالكتيك والبلاغة والمنطق قد شكلت مصادره وإطاره. وظل الحجاج متأثرا تأثرا عميقا بالدلالات المثالية أو القدحية إلى هذا الحد أوذاك لهذه المجالات الفكرية الثلاثة. ومهما يكن من أمر، فلازال الحجاج حتى الوقت الحاضر متموقعا عند التقاء هذه المعارف الثلاث التي احتضنت نشأته: فن الجدل وتقنيات الاستدلال وفن الخطاب.

- الديكارتية

جاء ديكارت بتصور جديد للعقل. ففي رأيه أن العقل عندما يتخلص من الأفكار الجاهزة ويتحرر من التبعية للمعلمين الشيوخ الذين يعتبرون حجة، وعندما يعرف، بالإضافة إلى ذلك، كيف

يلتزم بمنهج معين، يصبح قادرا على المعرفة المباشرة للحقيقة، وهذا ما يسميه بـــ"الحدس العقلي"، ذلك الحدس الذي يختبر بالبداهة.

ومن ثم، كان ديكارت جد مرتاب من الاستدلال بحصر المعنى، من الحجاج دون الانطلاق من بديهة عقلانية. وهكذا فإن كلمة الديالكتيك كفن لإقامة الحجة، قد استخدمت كمرادف لـــ"المنطق الشكلي". يشرح ديكارت في القواعد لهداية العقل، أن الديالكتيكيين يضعون القواعد التي بفضلها تترابط القضايا ترابطا صارما، بحيث إنه بانطلاقنا من مقدمات مسلم بها نصل بصورة شبه آلية إلى قضايا أخرى تنتج عنها بالضرورة. وقد كان ديكارت جد حذر تجاه الديالكتكيين: "إنهم يعتقدون في قدرتهم على التحكم في العقل الإنساني عن طريق إلزامه ببعض قواعد الاستنباط التي تفضي إلى نتيجة ضرورية، بحيث إن العقل الذي يثق بها – رغم أنه لا يكلف نفسه عناء تفحص الاستدلال نفسه بطريقة بديهية ويقظة – يمكنه مع ذلك في بعض الأحيان، أن يصل بفضل نجوع القواعد، إلى نتيجة أكيدة". ورغم أن ديكارت قد افتتن بالمنهج الرياضي، فإنه ظل صارما مع المنطق بصفة عامة (وجهاز الاستنتاج في الفلسفة خاصة)، لأنه عاين أن هذا الجهاز يقود إلى إهمال تفحص المبادئ التي يستند إليها الاستنتاج تفحصا يقظا. وهكذا اعتبر ديكارت في مقال في المنهج "أن المنطق وقياساته ومعظم التعليمات الأخرى تفيد بالأحرى في شرح الأمور التي نعرفها للآخرين، أو حتى في الكلام بدون تمييز في الأمور التي نجهلها، أكثر مما تفيد في تعلمها كما هو الأمر في فن لول" (2).

في البحث عن "الأفكار الواضحة والمميزة" أي البديهيات، سيرفض ديكارت المنطق والديالكتيك، مثبتا أنهما قد يعملان على إفساد العقل السليم بدلا من تهذيبه. يمكننا أن نستخلص مع بول فولكيي "أن المنطق عند ديكارت يأخذ اسم الديالكتيك حينما يساء استعماله ليشكل خطرا على العقل". لقد أنزل الديالكتيك إلى مرتبة المبدأ المفسر للمحتمل حيث يمكن أن تكون للحيلة وللمهارة أدوار. فالديالكتيكي، خطيبا كان أو منطقيا (لأن حجاجا منطقيا بصفة خاصة يرضي العقل لكن لا يقوده)، هو إلى حد ما "الجني الماكر" بالمعنى الذي يستخدمه ميرلو بونتي في المرئي واللامرئي. وهكذا فالديكارتية لا يمكنها أن تولد نظرية للحجاج مادامت تلقي بالمحتمل في دائرة الخطأ. إن إنجاز بحث في موضوع الحجاج يصبح أمرا مستحيلا إذا كانت كل قرينة إثبات وكل استدلال مطعونا فيهما لصالح البداهة حصرا.

- الديالكتيك المنطقي عند كانط

أنشأ كانط نظاما للتفكير تقوم خاصيته على التمييز بين الذاتي والموضوعي والظاهر والواقع.

إن العقل الإنساني مهما كان قويا (وهو قوي لأنه وحده بإمكانه أن ينظم العالم الإنساني أو عالم الفينومينات)(2) ، لا يمكنه إدراك الحقيقة في ذاتها. العقل والاستدلالات تهم الاعتقاد وليس الاقتناع. نحن "نعتقد" من جراء حكم في "ذاته": فلا يمكن أن ننقل خارج ذاتنا هذا النمط من الاعتقاد الذي هو الاقتناع، وخلافا لذلك فالاقتناع هو نتاج لحكم باسم العقل الخالص، وإذن فهو كوني. إن الاعتقاد قابل لأن ينقل إلى الآخرين؛ إنه يستند إلى حجة منطقية خالصة. يجيز كانط استعمال الحجاج حيثما كان الموضوع المعروض للتثمين قابلا لأن يعتبر كأمر ضروري بالنسبة لكل العقول. وكل حجاج ليست له صلة بـــ"المستمع الكوني" مآله السقوط في البلاغة بالمعنى القدحي، باعتبارها استدلالا موهما مبنيا على المظاهر المتولدة عن التجريبية أو السفسطة.

2- الفترة المعاصرة

رغم أن باسكال قد ساهم في عدة مقاطع حول "فن الإقناع"، في إحياء المناقشة حول طرق الاستدلال، فإننا نواجه ثلاثة قرون تقريبا (من القرن 16 إلى القرن 19) من السكوت عن الحجاج في أبحاث الفلاسفة.كل ما يتعلق بالبحث في آليات الحوار أو الخطاب كان يبدو إلى الأبد موصوفا بـــ"السفسطائي"، بـــ"البلاغي" في أحط المعاني. وكانت ميزة العقل هي البداهة، التي وحدها تحدث اتفاق العقول. وكان كل اختلاف دليلا على الخطأ. وكانت تسيطر فكرة تزعم أن ما هو عقلاني يقوم على الاستنباط انطلاقا من فرضيات مسلم بها. وهكذا فإن منطق الخطاب قد اختزل إلى المنطق الصوري الذي يقتبس نماذجه من الرياضيات.

- باسكال و"فن الاقناع"

إذا كان باسكال قد حاول الخروج من هذه الطريقة في التفكير، فلأنه أدرك أنه ينبغي معالجة المجالات التي لا يفي بها الحساب والتجربة والاستنباط المنطقي. ويتمثل المسلك الذي فتحه باسكال في التمييز بين "فهم" و"أراد". وهو إذ يقرر أن "للقلب حججه التي لا يعرفها العقل" فإنه قد أرجع للحجاج بعده البسيكولوجي. فهل يمكن قبول القطيعة بين القلب والعقل؟ يبرهن كلاباريد على ذلك عندما يعترف أنه في بعض الحالات يكون "معتقدا ولكن ليس مقتنعا" بالعمل أو بالتفكير بطريقة معينة. فالاعتقاد، ذلك الذي يمكن أن يخطر على القلب أكثر مما يخطر على العقل بالمعنى الذي عند باسكال، يجلب بصورة ذاتية كل امرئ نحو رأي أو قرار، أما اليقين فقد تكون له صلة بالعقل الخالص وله في جميع الحالات صلة بقواعد البرهان.

إن التقنيات الحجاجية، في هذا السياق، لا تظهر في ميدان التأمل المتسم بالمضاربة، هناك حيث يتعلق الأمر بالتذرع بحجج للبرهنة على صحة رأي أو تبرير قرار، وإنما تظهر بالأحرى هناك حيث ينبغي استنتاج نتيجة انطلاقا من طائفة من المقدمات. إضافة إلى هذا المأزق، لن تستميل التقنيات الحجاجية إلا ورثة خطباء العصور القديمة أكثر من استمالتها للمناطقة أو الفلاسفة. ويسجل في سنة 1828 صدور مؤلف لريشارد واتلي "مبادئ البلاغة" وآخر لكردينال نيومن"قواعد التصديق" في 1870. وقد بحث هذان المؤلفان مشاكل الحجاج التي يثيرها الإيمان والوعظ.

وأخيرا مع انتهاء هذه القرون الثلاثة، كان الحجاج يجد صعوبة في احتلال مكانة داخل النظرية العامة للاستدلال. حيث كان لا يزال يتأرجح بين التعريف الغامض الذي تقدمه عنه المعارف التي تحتويه: الديالكتيك والمنطق والبلاغة. وهكذا حينما يتم تقريب الديالكتيك من المنطق، فإنه يصير حجاجا صارما وقويا، وفي الحالة المعاكسة فإن الديالكتيك (و بالتالي الحجاج) ليس سوى طائفة من الإجراءات العسيرة الفهم والحيل الملتوية التي تضلل العقل الباحث عن الحقيقة.

- الديالكتيك الجديد

لقد كانت النظرية العامة للاستدلال، المستندة إلى معطيات الديالكتيك والمنطق، تتمسك، منذ العصور القديمة، بالدور المعترف به لمبدأ عدم التناقض (حينما تتناقض قضيتان، فإن إحداهما خاطئة). وكان هرقليط وبعض أتباعه، وحدهم، قد أبرزوا قيمة "صراع الأضداد"، وهو نوع من فلسفة التغيير واللااستقرار: "الأضداد تتوافق فيما بينها، فمن الأصوات المختلفة تنتج أحلى الأنغام، وكل شيء يولد بالصراع... والطبيعة أيضا تحب الأضداد، فبالأضداد، لا بالأشباه، تنشئ الطبيعة التناغم".

وسار هيجل على نهج فيتشه وشيلينغ فوضع ثلاثية الأطروحة والنقيض والتركيب، وأسس ديالكتيكا جديدا، ولد بدوره المادية التاريخية والماركسية. هكذا اغتنت نظرية الاستدلال بمبدأ جديد. وفي الواقع، فإن الديالكتيك الهيغلي، من دون أن يستبعد مبدأ عدم التناقض كوسيلة للبرهنة، قد استنتج من صراع الأضداد حقيقة جديدة هي "التركيب". فالآراء أو الوقائع التي تتناقض يمكنها أن تتصالح وذلك بتجاوزها لنفسها بفضل إدخال مبدأ الحركة والتغيير (اليوم والأمس... هنا وهناك، نظرتك إلى العالم ونظرتي...)؛ والتركيب الذي ينتج عن ذلك سيشكل تقدما نحو مزيد من الحقيقة.

في هذا السياق، سياق المحتمل والراجح، ستكتسب نظرية الحجاج معنى لم يكن بإمكانها أن تكتسبه في فلسفات اللاتغيير أو في الميتافيزيقا.

وهكذا فإن الديالكتيك الجديد قد أحيا التطور الدينامي للأفكار بإخراجه من الصراع كما

عرفته العصور القديمة، المتميز في الغالب بالطابع السكوني والخاضع لسلطة المبدأ المقنع الوحيد، مبدأ عدم التناقض. إننا مدينون للديالكتيك الهيغلي بالفكرة القائلة إن الأطروحة النقيض قد تحتوي على نصيب من الحق، وتساهم بالتالي في البحث عن الحقيقة. وهكذا أمكن لرجل دين بروتستاني، يدعى بول تليش، أن يكتب في نهاية القرن التاسع عشر: "إن الديالكتيك أسلوب في البحث عن الحقيقة يعتمد المواجهة بين مختلف وجهات النظر والانتقال من "نعم" و"لا" للوصول إلى "نعم" مصوغة تحت لهيب عدة "لاءات" وموحدة لعناصر الحقيقة المقدمة في الحوار". ها هو إذا مبدأ بإمكانه أن يدلنا عند تفكيرنا في طريقة إقامة الحجة وإدارة الحوار.

3- نظرية الحجاج في القرن العشرين

في سنة 1958 أصدر بيرلمان وتيتكا مؤلفا هاما بعنوان "بحث في الحجاج". يزعم المؤلفان أنهما عالمان مختصان في المنطق يبحثان عن وسائل الحجة في الفلسفة والإشهار والقانون والسياسة والحوار اليومي والعلوم الإنسانية بصفة عامة".

- بيرلمان: من أجل منطق للحجاج

تقول أطروحة بيرلمان إن التقنيات الحجاجية هي نفسها في التلفزة وعلى مائدة العائلة وفي المحكمة وفي عالم الأعمال. وفضلا عن ذلك، فإن "موضوع نظرية الحجـــــــاج–حسب بيرلمان- هو دراسة التقنيات الخطابية التي تمكن من حث العقول على قبول الأطروحات التي تعرض عليها للتصديق، أو تعزيز قبولها لها". وبالنتيجة، فإن بيرلمان يهمل "أداء الخطبة" (فن الكلام أمام الجمهور) ولا يهتم إلا بمنطق الحجاج بواسطة اللغة. وهو لم يعالج تقنيات التكييف (ما عدا تكييف الخطاب) فابتعد بالتالي عما يشكل اليوم الموجه الحقيقي للحجاج (في الإشهار وفي السياسة بصفة خاصة). يسلك بيرلمان منهجا يعتمد التفكيك ويستقي معظم أمثلته من الأدب والقانون والفلسفة، أي من اللغة المكتوبة. ويقدم هذا البحث الدقيق والديداكتيكي الحجاج باعتباره "مفهوما مضعف التحديد" حسب تعبير بلانشي، أي أنه محصور في سياق معين، وتحديا سياق المنطق. ومع ذلك، فإن بيرلمان قد استأنف، مثلما فعل أرسطو، تحليل التفاعل بين المستمع والخطيب. لقد شاء أن يكون في هذا المؤلف "عالما منطقيا متمكنا من آلية التفكير وليس متمكنا فقط من الفصاحة".

هناك شيء من اللبس بين هذا القصد المعلن عنه والعنوان الفرعي للمؤلف: "البلاغة الجديدة". فهل بإمكان منطق للحجاج، مؤسس لـــ"بلاغة جديدة" تأخذ في الاعتبار تحليل المستمعين وبعض

أشكال الخطاب، أن يهمل في نفس الآن الفعل الخطابي؟

- مساهمة العلماء المختصين في علم النفس الاجتماعي في دراسة الحجاج

إلى جانب هذا المؤلف لبرلمان حول منطق الحجاج وبعض المؤلفات الفرنسية التي عالجت الاستدلال وتناولت الحجاج بصفة ثانوية (روبير بلانشي في الاستخدام العملي للاستدلال؛ وبيير أوليرون في الاستدلال)، فإن القرن العشرين قد تميز بأبحاث المختصين في علم النفس الاجتماعي في مجال الدعاية والإقناع و بصفة عامة في التواصل الفعال.

فمنذ سنة 1935 صدرت مؤلفات لاسويل وكازي وسميت، (الدعاية والأنشطة التنموية). وأصدر بافيد في نيويورك سنة 1950 (الحجاج والحوار والمناظرة). وقدم في هذا الكتاب الحوار باعتباره الأداة المثلى لبلوغ نتائج مقبولة موضوعيا (يبحث المتخاطبون، بتراهة وبدون تعصب لرأي مسبق، عن أفضل حل لمشكلة مختلف حولها) . وفي المقابل أصدر دال كارنوجي في نفس الفترة كتابا يرجع الحجاج إلى البلاغة والسفسطة (فن الكلام أمام الجمهور والإقناع في الأعمال). ودرس هوفلاند الحجاج في سياق الاتصال الجماهيري (تجارب في الاتصال الجماهيري، 1949).

نلاحظ بصفة خاصة أن جميع هذه الأبحاث الصادرة في حدود السنوات 50، هي من أصل أمريكي. وهي جميعها مميزة بالطابع البسيكولوجي والسوسيولوجي أكثر مما هي مميزة بالطابع المنطقي أو البلاغي بالمعنى المستعمل عند بيرلمان. وتلك أيضا حالة المؤلفات العامة الأقرب عهدا (كيسلر وكولين وميلر تغيير السلوك؛ ماك كير، السلوك: طبيعته وتغييره) أو العديد من الدراسات المختصة في بعض مشاكل الإقناع في الولايات المتحدة، مثل الحملة المناهضة للتدخين التي تمت دراستها من طرف ماك كير.

يستخلص من المقاربات الراهنة أن الحجاج يفلت أكثر فأكثر من التأثيرات التقليدية للديالكتيك والمنطق والبلاغة القديمة ليستخدم في فرع من فروع النظرية العامة للتواصل، ذلك الفرع الذي يهتم بالرسائل الإقناعية. وهكذا انتقل الحجاج من الفيلسوف إلى عالم النفس، إن لم يكن إلى ميادين أكثر تخصصا مثل ميدان منظري الإعلام. وهكذا فإن الخطيب "الماكر" أو السفسطائي "المحتال" اللذين كانا يسعيان إلى إقناع المستمعين أو الخصوم قد تم تعويضهما بعالم الاجتماع "المحرك"، وعالم النفس "المرائي" والإعلاني "الماهر" الذين يستخدمون معرفتهم بالحوافز المتوارية وبخفايا الحياة النفسية الجماعية أو الفردية، لإقناع كل فرد أفضل إقناع من غير شعور منه، بمزايا منتوج أو بخصال مرشح، أو بالقيمة الخاصة لبرنامج سياسي أو لحزب سياسي.

هكذا أصبح الحجاج اليوم شأنا من شؤون التواصل، يدبره بالأحرى علماء النفس أكثر مما يدبره المناطقة. فالأخصائيون في التواصل هم الذين يدرسون فن حوار السياسيين في التلفزة، وتبلور الرسائل الإشهارية، وهم الذين يقدمون الاستشارة للمسؤولين عن شؤون التجارة في المقاولات، ويضعون مخططات الحملات الدعائية (التدخين، الخمر، الأمن...). وقد تكاثرت الدراسات في ميدان الإقناع، منذ مؤلف فانس باكار "الإقناع الخفي" (1958) إلى المؤلف الأخير لجون-نويل كابفيرر "سبل الإقناع" (1978).

وأصبحت معالجة الإقناع تتم عادة من خلال ثلاث زوايا:

- زاوية بنية وسائل الاتصال (مقاربة سياسية وسوسيولوجية: من يتحكم في الخبر ويوجهه؟)
- زاوية محتوى الرسائل (أنماط الحجة ، طبيعة الرسالة، خصائصها)
- زاوية الآثار التي يحدثها الإقناع (تحليل النماذج الخاصة بتغير الموقف وتشكل الآراء).

وهكذا يشرح كابفيرر بأنه لفهم ظاهرة الإقناع ينبغي التمكن من تحليل الطريقة التي "يغير بها الكائن الإنساني مواقفه وسلوكه إثر دخول رسالة إلى حقله البسيكولوجي". يتعلق الأمر إذن بتوضيح "قولبة الخبر، بصورة داخل–نفسية، من طرف الجهة المستقبلة في عملية التواصل، أي الجمهور، أنتم ونحن". إن الدراسات التجريبية في هذا الموضوع كثيرة جدا (الآراء وتغيير الرأي لروجي موشييلي)، وهي في معظمها أمريكية. وقد فكك كابفيرر في "سبل الإقناع" إوالية الإقناع باعتبارها "كلا مكونا من متتالية تشتمل على ست عمليات رئيسية"، منقحا بذلك نموذج جامعة يال الذي وضعه كارل هوفلند. وهذه العمليات الست هي:

1. التعرض للرسائل. لماذا وكيف نتعرض للرسائل؟
2. تفكيك شفرة الرسائل. ما هي متتالية العمليات التوجيهية والتحويلية التي بواسطتها يمكن لإثارة حواسنا بالرسالة أن تعطي صورا وكلمات ومفاهيم؟
3. قبول الرسالة (التصديق). كيف يتم إعداد مسلسل قبول القصد الإقناعي للرسالة أو رفضه؟ كيف يتم المرور من الفهم إلى الإقتناع؟
4. اندماج القبول في الموقف الشخصي. بأية معالجات بسيكولوجية نمر من مسلسل القبول إلى تكوين موقف جديد؟ (بداية الميل إلى حزب معين).
5. تعميق القبول والحفاظ عليه. كيف تتطور المواقف في الزمن؟ وهل تتمتع التغييرات بما يكفي من أسباب المقاومة؟

6. تقيد السلوك الشخصي بالقبول. كيف يترجم تغيير الموقف إلى تغيير للسلوك (من الآن فصاعدا سأستعمل دائما حزام السلامة)؟

تظهر هذه المقاربة قيمة مساهمة الأبحاث في الميدان البسيكولوجي بالنسبة لأولئك الذين يدرسون مفهوم الحجاج. وبفضل البحث التجريبي تقدمت معرفتنا بآثار الحجاج من حسن إلى أحسن، أي معرفة كيف يصير الاتصال مقنعا، انطلاقا من اللحظة التي نعرف فيها كيف تتم "المعالجة الداخل-نفسية" التي تقود من موقف جديد إلى سلوك جديد (سوقوا سياراتكم بسرعة أقل، صوتوا لصالح الحزب الفلاني، اشتروا المنتوجات الفرنسية، اتخذوا القطار وسيلة للسفر...).

ويمكن لهذه المعارف البسيكولوجية بإوالية الإقناع، أن توجه أو تقود اختيار الأساليب الحجاجية. وفي نهاية التحليل فإن الحجة لوحدها لا قيمة لها ما دامت لم تتم "معالجتها". إن الفرد هو الذي يملك مفتاح القدرة الإقناعية للحجة.

النص الذي قمنا بترجمته مأخوذ من : Lionel Bellenger : L'argumùentation, ESF éditeur, 1996 , pp 5 – 15

1- فينومين" في الاصطلاح الفلسفي وعند كانط هو ما يظهر، ما يدرك بالحواس، وأيضا ما هو "ممثل" في الذهن البشري. إنه مختلف تماما عن موجود العالم، الذي هو ماهية غير قابلة للمعرفة وغير معقولة ("النومين")]

2- إحالة على الفن الأعظم لريمون لول (1235 – 1315) وهي منهجية يمكن أن نفسر من خلالها كل شيء وتسهدف " هدي الضالين عن سبيل الله " وتوحيد البشرية جمعاء , المترجم